

الأبعاد الدلالية للتداولية للمعاني النحوية في تفسير التحرير والتنوير
نماذج من تفسير حزب الأعلى

Dimension of Grammatical Functions in The Semantic and Pragmatic
Tafsir al-tahrir wa al-tanwir: exmple from the interbretation al-a'la party
أُنور طراد *

Trad Anwar

مخبر اللسانيات التطبيقية بين العلم والأدب
المركز الجامعي عبد الحفيظ بوالصوف ميله (الجزائر)

University Centre of Abdelhafid Boussouf – Mila(Algeria)

anwar.trad@centre-univ-mila.dz

تاريخ النشر: 2024/12/02	تاريخ القبول: 2024/11/07	تاريخ الإرسال: 2024/09/15
-------------------------	--------------------------	---------------------------

مُلَخَّصٌ لِلْبَحْثِ

تعد المعاني النحوية ركنا رئيسا في فكّ شفرات التراكيب الكلامية، وفهم معانيها ومراميها، ولا يمكن بأي حال أن تتحقق الفائدة والمقصد ما لم تضبط هذه المعاني في الذهن، وتُتَوَخَّى عند فهم وبناء التراكيب، من أجل ذلك كان الغرض من هذه الدراسة الكشف عن الأبعاد الدلالية للتداولية المستفادة من المعاني النحوية، متبعين في ذلك المنهج الوصفي في عرض وتحليل مادة البحث، وقد اخترنا مدونة عمل تطبيقية استخرجنا منها نماذج لهذه المعاني، وما تضمنته من مقاصد دلالية تداولية، أعني تفسير حزب الأعلى من كتاب تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور.

واختتم البحث بنتائج بينت القيمة الحقيقية للمعاني النحوية في فهم الدلالات التركيبية والتداولية للتصوص والخطابات، كما أظهرت الدراسة كثرة ورود هذه المعاني في المدونة المختارة، وإسهامها بشكل واضح في الوصول إلى فهم عميق للتراكيب القرآنية.

الكلمات المفتاحية: نحو- معاني النحو - علم المعاني- تفسير التحرير والتنوير - أبعاد دلالية- أبعاد تداولية

Abstract :

Grammatical functions are a key element in deciphering linguistic structures and grasping their meanings . The intended benefits cannot be realized

* أنور طراد anwar.trad@centre-univ-mila.dz

unless these functions are firmly understood and applied when interpreting and constructing sentences. This study aimed to explore the semantic and pragmatic dimensions derived from grammatical functions, using a descriptive approach to present and analyze the research material. We selected an applied corpus from which we extracted examples of these functions and their associated meanings, particularly focusing on the interpretation of the Party AL-Ala from " al-Tahrir wa al-Tanwir".

The research concluded with findings that demonstrated the true value of grammatical meanings in understanding the compositional and pragmatic significances of texts and discourses. The study also showed the frequent occurrence of these meanings in The chosen blog and their clear contribution to achieving a deep understanding of Quranic structures.

Keywords: Grammar, Grammatical functions, Science of meaning, Tafsir Al-Tahrir wa Al-Tanwir, Semantic dimensions, pragmatic dimensions.



مقدمة

يعد البحث في معنى التصوص والعبارات قطب الرّحى، وغاية كل دراسة لغوية، قديمها وحديثها، فكيف إذا تعلق الأمر بنص معجز تحدى الله به أقواما برعوا في نظم الكلام وفن القول. من أجل ذلك كان هدف علماء العربية التوصل إلى فهم معاني التراكيب القرآنية وسبر أغوارها. وقد كان الاهتمام بالنص القرآني المنطلق الرئيس في بروز علوم كثيرة، لغوية وشرعية، نشأت في مناخ واحد، اختلفت في الموضوع وانفتحت في الغاية، فظهر علم النحو، وظهرت البلاغة، والتفسير، والفقه، والقراءات، والكلام، تبادلت جميعها التأثير والتأثر، وتضافرت لتحقيق أهم غاية هي: فهم القرآن الكريم، من حيث تراكيبه وأحكامه وإعجازه.

والنحو من العلوم الجليلة التي كان له الحظ الوافر في خدمة القرآن الكريم، إذ هو الآلة والمفتاح الذي به تعرف أسرار التراكيب وجودة الأساليب، لذلك كان لزاما على كل مهتم ببلاغة القرآن وإعجازه وتفسيره، أن يكون له حظ وافر وباه طويل فيه، لأن النحو بأبوابه ومعانيه هو لب علم المعاني، وهذا الأخير أساس التفسير اللغوي، وقد جعل الجرجاني النحو المنطلق الأول في نظرية النظم المهمة بالإعجاز اللغوي في القرآن الكريم، بين من خلالها فائدة معاني النحو، وقيمتها في فهم التراكيب، ودعا إلى توخيها في تحليل ونظم

الكلام. وقد أثرت نظريته وأفكاره فيمن أتى بعده، فأخذوا بنصيب منها في تفسيرهم للقرآن، وهو ما صنعه صاحب التحرير والتنوير العلامة الطاهر بن عاشور. بناء على ما سبق تهدف هذه الدراسة إلى الوقوف على المعاني النحوية، وما تضمنته من أبعاد دلالية تداولية، في تفسير حزب الأعلى من التحرير والتنوير، وإسهامها في فهم التراكيب القرائية وبلاغتها. ونحن إذ ذاك نحاول الإجابة عن الإشكالية الآتية:

- ما الأبعاد الدلالية والتداولية للوظائف النحوية في تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور ؟
 - هل يتوقف النحو عند حدود ما يجوز، وما لا يجوز من الاستعمال فقط ؟
 - ماذا نقصد بالمعاني النحوية ؟ وكيف تسهم في فهم دلالات التراكيب ؟
 - ما أهم الأغراض الدلالية والتداولية للمعاني النحوية في تفسير حزب الأعلى ؟
- وقد ساعدنا في استقصاء وعرض مادة بحثنا وتحليلها المنهج الوصفي بآلياته، كما استند البحث على المنهج المقارن في الكشف عن العلاقة بين المعنى النحوي، وعلم المعاني، والمعنى التركيبي.

أولاً. التحو مفتاح لفهم المعاني والتراكيب:

علم التحو من العلوم اللغوية الجليلة، التي يتوصل بها إلى « معرفة كيفية التركيب فيما بين الكلم لتأدية أصل المعنى مطلقاً، بمقاييس مستنبطة من استقراء كلام العرب، وقوانين مبنية عليها، ليحترز عن الخطأ في التركيب من حيث تلك الكيفية، وأعني بكيفية التركيب تقديم بعض الكلم على بعض، ورعاية ما يكون من الهيئات إذ ذاك، وبالكلم نوعياً المفردة، وما هي في حكمها.¹ فبه تبنى التراكيب بناء صحيحاً، وتفهم معاني القرآن الكريم فيها عميقاً، وبه يفرق بين صحيح الكلام وفاسده.

وهو آلة ومفتاح لفهم كثير من العلوم اللغوية الأخرى، والعلوم الشرعية مثل الفقه والتفسير. وهذه الحقيقة العلمية يؤكدها المناخ العام الذي نشأ فيه التحو واحتكاكه بهذه العلوم، وتبادل التأثير والتأثر بينها وبينه، كما تؤكدها الدوافع التي أسهمت في نضجه، وجعلته علماً له ضوابطه وأصوله. وعليه فالتحو في مجمله علم يعني بمعرفة كيفية بناء التراكيب، وما يتعلق بتلك الكيفية من ضوابط، مثل الإعراب والبناء، والتقديم والتأخير، والحذف، والتعريف والتشكيك... من أجل التعبير عن المقاصد بشكل سليم يوافق كلام العرب، ولا يخرج عن قوانينهم. وعليه لا يقف التحو عند هذا الحد أي الاحتراز عن الوقوع في الخطأ- كما قد يتوهم، بل إن غايته تتجاوز ذلك.

والناظر في كلام كثير من المؤرخين للتحو، وكثير من المحدثين، يجدهم قد حصروا هدف التحو في صون اللسان عن الخطأ، وهي حقيقة علمية، وإن كانت صحيحة من جهة، فإنها أغفلت جانباً آخر في غاية الأهمية، فالتحو بقواعده وأصوله وأبوابه يؤكد صرامة علماء العربية، وعبقريتهم الفذة في وضع القاعدة، والحرص

على سلامة وثقاوة اللغة المستشهد بها، من أجل غاية أسمى، هي فهم القرآن الكريم والوقوف على معاني تراكيبه، وما تؤديه من دلالات كثيرة. إذ هو النص المعجز لغويا وبيانيا، تحدى الله به أقواما برعوا في نظم الكلام أيما براعة.

إذ لو كانت غايته صون اللسان فقط، لكان مبحث الإعراب كافيا لذلك، فكيف نفسر كثرة مباحثه ومصنفاته؟ وتجاوزها حدود ما يجوز، وما لا يجوز من اللغة، إلى تبيان المعاني والثكت التي يميز بها هذا التركيب عن ذاك، وأن قولك: زيدٌ صادقٌ، ليست مثل قولك: إنَّ زيدا لصادقٌ...، بناء عليه فالتحو لا يعنى بالعلاقات الشكلية فقط، وإنما يتجاوزها إلى تحديد المعاني التي تؤديها هذه العلاقات، فهو بذلك آلة لنظم الكلام، ومفتاح لفهم المعاني، وسبر أغوار التصوص والملفوظات. ولا شك أن أبلغ من عبر عن التحو وغايته، وردّ على من قلل من قيمته، عبد القاهر الجرجاني حينما قال: «أما زهدهم في التحو واحتقارهم له، وإصغارهم أمره، وتهاونهم به، فصنيعهم في ذلك أشنع من صنيعهم في الذي تقدّم (يقصد الشعر)، وأشبهه بأن يكون صدّا عن كتاب الله، وعن معرفة معانيه؛ ذاك لأنهم لا يجدون بُدّا من أن يعترفوا بالحاجة إليه فيه، إذا كان قد علم أن الألفاظ معلقة على معانيها حتى يكون الإعراب هو الذي يفتحها، وأن الأغراض كامنة فيها حتى يكون هو المستخرج لها، وأنه المعيار الذي لا يتبين نقصان كلام ورجائه حتى يعرض عليه، والمقياس الذي لا يُعرف صحيح من سقيم حتى يرجع إليه..»²

ثانيا- حد المعنى التحوي وضابطه:

البحث عن المعاني كان ديدن علماء العربية، لذلك لا تجد بحثا في مسألة لغوية معينة إلا وكان الوصول إلى معانيها الغاية الأهم، وغاية التحو -كما ذكرنا آفا- هي الكشف عن حجب المعاني الكامنة في التراكيب الكلامية، والحديث في هذا السياق يقتضي منا بسط القول عن المعنى التحوي بعده الأساس الذي يرجع إليه في نظم الكلام، وتحليله، وتبليغ المقاصد.

ويعد عبد القاهر الجرجاني أول من كشف عن هذا المصطلح، في نظريته النظم، حين بين العلاقة الوطيدة بين المعاني النحوية ونظم الكلام، ويّين أن المفردة الواحدة تحمل معنى معجميا، وآخر وظيفيا أو نحويا تكتسبه حين تنظم في التركيب الكلامي، يقول: «إنا إن بقينا الدهر نجهد أفكارنا حتى نعلم للكلمة المفردة سلكا ينظمها، وجامعا يجمع شملا ويؤلفها، ويجعل بعضها بسبب من بعض، غير توخي معاني النحو وأحكامه فيها، طلبنا كل محال دونه.»³ بل إن عبد القاهر جعل النظم كله توخيا لمعاني النحو في التأليف، وترتيب الألفاظ، والمعاني.

بناء على ذلك فالمصطلح عنده يمثل جملة المعاني الوظيفية غير المعجمية، مثل: (الفاعلية، والمفعولية والإضافة، المبتدأ، الخبر...) التي تؤديها الكلمات المؤلفة في نسق كلامي؛ وضرب الجرجاني أمثلة على ذلك قائلا: «إن النظم إنما هو أن الحمد من قوله تعالى: الحمد لله رب العالمين الرحمن الرحيم مبتدأ والله خبر ورب

صفة لاسم الله تعالى ومضاف إلى العالمين، والعالمين مضاف إليه، والرحمن الرحيم صفتان كالرب، فانظر هل يتصور في شيء من هذه المعاني أن يكون معنى اللفظ؟ وهل يكون كون معنى الحمد مبتدأ، معنى لفظ الحمد؟ أم يكون كون (رب) صفة وكونها مضافا إلى العالمين معنى لفظ الرب»⁴، فمن هنا تبين أن المعاني النحوية عنده إنما هي مواقع التي تتخذها الألفاظ داخل الجمل، إذ تكون وفق ترتيب معين يراعي صحة القاعدة النحوية، ويستند إلى معايير مقصدية للمتكلم. فالمبتدأ يشكل وظيفة نحوية، والخبر كذلك، والمضاف إليه، والفاعل، والبدل، والصفة، والعطف، وغيرها من الوظائف، ممثلة في أبواب النحو كلها، كما أن تقديم، وتأخير، وحذف هذه العناصر، وما يطرأ عليها من تعريف وتنكير، لا يكون إلا لغرض دلالي ومقامي، كما يدرس المعنى النحوي بنية الكلمة الصرفية، لأن اختلاف البنية الصرفية يؤثر في الوظيفة النحوية للكلمات: (مثال ذلك قولك: الكلمات الواقعة بعد المصادر، أو المشتقات عامة...) فإنها تكون فاعلا، أو مفعولا، أو نائب فاعل، بحسب البنية الصرفية، وهذا ما يؤكد علاقة الصرف بالنحو وتكاملهما.

وترتيب هذه المعاني واختيارها يخضع لأهم شيء في العملية التواصلية، وهي الحال النفسية، أو الذهنية للمتكلم الذي يهدف في كلامه تحقيق مقاصد وأغراض مختلفة، كما يخضع لحال المتلقي وظروف الخطاب.

ثالثا- الأبعاد الدلالية والتداولية للوظائف النحوية:

من المعلوم -كما مر سلفا- أن الوظيفة النحوية التي تتخذها المفردات داخل الجمل بناء على الاختيار والترتيب والضم، وكل ذلك التظم لا يكون إلا لأغراض دلالية تتحقق بها الفائدة والمقصد، وأغراض تداولية تجعل العملية مراعية للمعايير التبليغية، كالسياق، وحال السامع، ومعرفة المخاطب، والظروف الخارجية، وهلم جرا...

1- الأبعاد الدلالية للوظائف النحوية (الدلالة التركيبية):

وهي ما يصطلح عليه أيضا بالدلالة التركيبية أو المعنى التركيبي، وهو يرتبط أساسا بأمرين أحدهما مرتبط بالمتكلم والثاني بالمخاطب:

- الأول الوظائف النحوية، أو القوالب النحوية التي يستند إليها المتكلم لتحقيق غرضه التبليغي، إذ يجب أن يحسن ضم الكلم والجمل بعضها إلى بعض، وفق ترتيب يقتضيه المقام والمقصد.

- الثاني الفائدة وتحقق المقصد، وهي متعلقة أساسا بالمتلقي، ومدى تحصيله لمعنى التركيب الكلامي. لذلك فالمعنى التركيبي: يمثل المقصد والفائدة والغرض من التركيب الكلامي، يتلقاه المخاطب تلقيا صحيحا، من متكلم عارف بكيفية بناء التراكيب، وبعد هذا المعنى من أبرز المعاني في البلاغة العربية، بل هو المغزى والهدف من أي دراسة بلاغية تسعى لسبر أغوار التراكيب، إذ هو: «أساس الفائدة التي من أجلها وضعت الكلم إزاء مدلولاتها المعجمية، وفي ظلها قننت الصيغ والمباني النحوية إزاء ما تؤديه من معاني ووظائف، وهو

من جهة أخرى أصل المعنى في كل تعبير كلامي، سواء أكان ذلك التعبير تقريرياً مجرداً، أم بلاغياً فنياً.⁵ هذا الضرب من الدلالة هو الهدف الذي سعى إليه الجرجاني في عمله، وجعله محور الدراسة ولبها في نظريته. يتوصل إليه بحسن الترتيب والاختيار والضم، وتوخي معاني النحو في نظم التراكيب والعبارات. ومقارنة بسيطة بين الدلالة المعجمية، والمعنى النحوي، وبين المعنى التركيبي، فإن الأول يمثل دلالة لفظية وضعية، والثاني يمثل القاعدة والقالب الذي ترتب وفقه الكلمات، وكلاهما قائمان في الذهن (أي الألفاظ والقواعد) يستدعيهما المتكلم كلما أراد أن ينشأ خطاباً أو يحلله، وأما الدلالة التركيبية فإنها لا تدرك إلا بفهم تلك العلاقة بين الجانبين فهما عميقاً، ويُعدّ نظر لدى المتكلم وقدرة عقلية تحليلية، تعينه على فهم المقصود وبلوغ المطلوب.

ولتوضيح هذا الدلالة المتولدة عن التراكيب النحوية نضرب الأمثلة الآتية: فمن أغراض التنكير مثلاً التعظيم أو التحقير، أو التكثير، أو التخصيص، أو إرادة الواحد، أو إرادة الجنس، وكل ذلك بحسب السياق، ففي قولك: عرفته رجلاً، وردت لفظة رجل نكرة للدلالة على التعظيم، أي عرفته حازماً قوياً... - ومن أغراض تقديم الخبر على المبتدأ إرادة التخصيص، أو الافتخار، أو التفاؤل، أو العناية والاهتمام بالمقدم، أو تأكيد الخبر.. وهكذا، فقولك مثلاً: جزائري أنا، قدمت الخبر لغرض الافتخار، وهو معنى يفهم من التركيب والسياق.

2- الأبعاد التداولية للوظائف التحوية:

من المعلوم أن التداولية بعدّها توجهاً لغوياً جديداً تركز على دراسة الاستعمال اللغوي في المقامات الكلامية المختلفة، مستعينة بظروف الخطاب وسياقاته. والأبعاد التداولية أو الوظائف التداولية تشكل محورا رئيساً في العملية الخطابية، فهي المحددة لوضعية مكونات الجملة وعلاقة هذه الأخيرة بالمكونات المقامية التي تنجز فيها، فهذه الوظيفة مرتبطة بالسياق، ومدى تحقق القوة الإنجازية في العملية التواصلية.⁶ ويخطأ كثير من اللغويين المحدثين حيناً يعتقدون أن تراثنا النحوي أغفل هذا الجانب، والحقيقة أن النحو العربي لم يتناول البنى التركيبية منعزلة عن الاستعمال وأحواله، بل رُبطت بالمتكلم صاحب الخطاب ومُنشئه، وبالمخاطب المتلقي للخطاب وسامعه، كما اهتم بالنص والتراكيب، وما يجب أن تحملها من خصائص لتؤدي الغرض، وكلامهم عن مراتب الكلام وصحته وارتباطه بالمتكلم والمخاطب، وحديثهم عن الفائدة، والحذف وشروطه المتصلة بالمقام وبحال السامع، وإيهام الكلام وتفسيره، وقمة كل ذلك بالنسبة للمتكلم والمخاطب، بل إن لكل وظيفة نحوية أبعاداً تداولية، فالخبر عند النحاة الجزء المتم للفائدة، وغرض التوكيد إزالة الشك لدى السامع، وغرض النداء تنبيه السامع ودعوته، وفيه نداء البعيد والقريب حسب الغرض، وغرض التمييز إزالة الإيهام والاحتمالات عند السامع..وقس على ذلك باقي الوظائف التحوية، وكلما تغيرت رتبة الكلمة أدت معاني أخرى مضافة، فتقديم

الخبر على المبتدأ ليس كتأخير، وحذف الفاعل، أو الخبر، أو المفعول ليس كذكره، والتعريف له مقصد ومقام، وكذلك التنكير، وكل موضع من ذلك مقام ولكل تعبير غرض. ولتوضيح كل ذلك اخترنا مدونة نعتقد أنها غنية جدا بمختلف المعاني النحوية ذات الأبعاد الدلالية، ولكثرتها وغزارتها، ارتأينا أن نقف على نماذج منها فقط، متجاوزين المكرر، ومركزين على الدلالات النحوية التي أسهمت بشكل واضح في تبين المقصد.

رابعا- المعاني النحوية وأبعادها الدلالية التداولية في تفسير التحرير والتنوير -نماذج من تفسير حزب الأعلى-

1- حضور التحليل التركيبي في تفسير التحرير والتنوير:

تفسير ابن عاشور تفسير متكامل متفرد عن غيره، نهل فيه من أصناف علوم كثيرة، مما تضمن دررا نفيسة وفوائد عظيمة، لا تكاد نجدها عند من سبقوه، كشف فيه عن وجوه الإعجاز البياني، والنكت البلاغية، وأساليب الاستعمال، والاتصال بين الآي والسور، وبين أغراض كل سورة، يقول في مقدمته: «فإني بذلت الجهد في الكشف عن نكت من معاني القرآن وإعجازه، خلت عنها التفسير، ومن أساليب الاستعمال الفصيح ما تصبو إليه هم النحارير»⁷

والمدقق في عمل المفسر يجد الطابع اللغوي (المعجمي، والتحوي، والصرفي، والبلاغي) غالبا في كثير من الأحيان، فهو يعرض للآية كلمة كلمة، وجملة جملة، كاشفا عما تدل عليه التراكيب الكلامية، ولا تكاد تجد موضعا إلا وقد بين المواقع الإعرابية والمعاني النحوية للألفاظ والجمل، ناظرا في ما تدل عليه من مقاصد دلالية، بناء على تحليله التركيبي والبلاغي العميق، وغزارة علمه في شتى الفنون اللغوية.

2- حضور التحليل التداولي عند ابن عاشور

تبرز كثير من الإشارات التداولية عند ابن عاشور في تحليله للجمل، ويمكن أن نستشف ملامح التحليل التداولي بناء على مجموعة من النقاط متعلقة بالسياق، والمتلقي، ومراتب الخطاب، والمقصد، من ذلك:

- إشاراته إلى تعدد المعاني المستخلصة من تركيب معين، بناء على اختلاف السياقات، مقاصد المتكلمين.
- إشاراته المتكررة إلى المتلقي للخطاب وأحواله (جاهل، ومنكر، وعارف...)
- إشاراته إلى اختلاف درجات الخطاب ومستوياته تحقيقا للمقصد والغرض.
- إشاراته الكثيرة إلى المعاني المباشرة وغير المباشرة التي تحملها الصيغ اللغوية، مثل: الاستفهام والأمر والنهي والنفي، وكل ذلك من الأفعال الكلامية التي تحمل قوة إنجازية تنبني على مقصد المتكلم.
- بالإضافة إلى قضايا كثيرة متضمنة في تفسيره، وهي من ركائز المنهج التداولي الحديث، كاللحاج بالياته وروابطه، والاستلزام الحوارية بقواعده، والإشارات بأنوعها...وهلم جرا، وهي قضايا من الأهمية بمكان، تستدعي بحثا مستقلا.

3- الأغراض الدلالية والتداولية للتعريف والتشكير:

قد يدل تعريف وتذكير الأسماء على معان كثيرة كما مرّ الحديث عن ذلك، وقد استقصينا كثيرا منها في تفسير حزب الأعلى، سنكتفي بذكر نماذج فقط لكثرتها، مركزين على المعرف بالآلف واللام، وما أفاده من معاني دلالية وتداولية.

أ- التعريف بالآلف واللام ودلالته: من معاني الآلف واللام أنه قد يراد بها تعريف الجنس، أو العهد، الأولى هي التي لا يراد بها واحد بعينه، بل تستغرق أفراد ذلك الجنس كلهم. والعهدية هي التي يراد بها واحد من أفراد الجنس، فتعينه وتخصه، وهذه بعض الأمثلة من تفسير الطاهر بن عاشور:

— في سورة الفجر أشار ابن عاشور إلى كثير من دلالات التعريف، فيرى أن تعريف لفظة (الفجر) تعريف للجنس، فلا يقصد به فجر بعينه، ودليله في ذلك مناسبة عطف جملة ﴿وَاللَّيْلِ إِذَا يَسِرُّ﴾ [الفجر: 04]، وأضاف أنه يجوز فيها أن يكون التعريف للعهد، فيكون المعنى فجر بعينه، وهو فجر يوم عرفة. ويشير في ذات السورة إلى أن تعريف لفظة البلاد في قوله تعالى: ﴿الَّذِينَ طَعَوْا فِي الْبِلَادِ﴾ [الفجر: 11] أنها تحمل معان ثلاثة:⁸

إما تعريف الجنس، فيكون المعنى التي لم يخلق مثل تلك الأمة في الأرض، أو أن تدل على الاستغراق العرفي، فيكون المعنى: بلدان العرب وقبائلهم، أو أن تدل على العهد، أي: في بلادهم، والجمع على اعتبار التوزيع، أي طغت كل أمة في بلادها. وهذه المعاني تبنى وفق رؤية سياقية تداولية.

كذلك في لفظة (المرصاد) الآلف واللام فيها للجنس، وهو يفيد عموم المتعلق، أي إن ربك بالمرصاد لكلّ فاعل. ومثله التعريف في لفظ الإنسان: ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ..﴾ [الفجر: 15] تعريفه يراد به تعريف الجنس الاستغراقي، ولكنه استغراق عرفي، المراد به المشركون، لأنهم الغالب على الناس المتحدث عنهم، وفي اللفظتين (اليتيم والمسكين) في السورة نفسها يرى أن تعريفها تعريف الجنس، أي لا تكرمون اليتامى كلهم، ولا تحظون على طعام المساكين، فهي مستغرقة وشاملة لهذين الجنسيتين، ومثل ذلك التعريف في لفظ (المالك) من قوله تعالى: ﴿وَالْمَالِكُ صَفًا﴾ [الفجر: 22]، فتعريفه تعريف الجنس الاستغراقي، والمراد الملائكة كلهم.

— وتعريف لفظ الإنسان، في سورة البلد، من قوله تعالى: ﴿لَقَدْ خَلَقْنَا الْإِنْسَانَ فِي كَبَدٍ﴾ [البلد: 04] يرى ابن عاشور أنه يحتمل فيه الأمران:⁹

تعريف الجنس، وتعريف العهد، والأول أقرب، ويكون المقصود به حينئذ خصوص أهل الشرك والكفر، لأنّ العموم ههنا عموم عرفي، أي الإنسان في عرف الناس يومئذ، وعلى المعنى الثاني أن يكون التعريف للعهد، فيكون المعنى أن يقصد به شخص بعينه، ويقال أنه أبو الأشد، كان معروفا بالقوة والشدة، والكفر والعدوان للرسول صلى الله عليه وسلم، وقيل هو أبو جهم، وقيل الوليد بن مغيرة.

- وفي سورة الضحى يقول تعالى: ﴿وَلَا خَيْرَ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى:04]، التعريف في لفظة (الآخرة) يفيد التعميم، فيجعل معنى الجملة في معنى التذييل الشامل لاستمرار الوحي، وغير الوحي، وهي لام الجنس، فيكون المعنى: كل أجل أمره هو خير من عاجله في هذه الدنيا، وفي الأخرى، وفي تعريف لفظة السائل في قوله تعالى: ﴿وَأَمَّا السَّائِلَ فَلَا تَنْهَرْ﴾ [الضحى:10] تعريف الجنس، فيعم كل سائل عما يسأل النبي صلى الله عليه وسلم عن مثله.¹⁰

ب- التنكير وأغراضه:

إذا غُيِّرَ بالنكرة فإنها تدل على أغراض منها: أن تدل على الوحدة أو الجنس، وقد يراد بها إفادة العموم، إن كانت في سياق النفي أو الاستفهام، كما قد تدل على التعظيم، أو التهويل، أو التكثير أو التقليل، أو التخصيص، وقد يراد بها أيضا التحقير والتجاهل. وكل ذلك بحسب مقصد المتكلم، وبحسب المقام. ومن أغراض التنكير التي رصدناها في التفسير، ما يلي:

- تنكير لفظ (ليال) وتعريف (الشفع والوتر)، يشير إلى أن الليالي العشر ليل معروفة معينة، وهي عشر ليال في كل عام، والتعريف في الشفع والوتر، يشير إلى أنها معروفان معلومان، وهما الشفع والوتر من الليالي العشر، أي قد أفادت النكرة ههنا التخصيص، أي تخصيص هذه الأيام بذات من كل عام.

- وقد دلّ تنكير كلمة (قسم) على التعظيم، في قوله تعالى: ﴿هَلْ فِي ذَلِكَ قَسَمٌ لِذِي حِجْرٍ﴾ [الفجر:05]، ومعناه أنه قسم كاف ومقنع للمقسم له، إذا كان ذو عقل يتدبر به، أي: هل في ذلك تحقيق لما أقسم عليه للسامع الموصوف بأنه صاحب حجر، فدلالة التنكير ههنا لها فائدتان: دلالية هي التعظيم، وتداولية هي إقناع المتلقي بقوة القسم.

- وفي قوله تعالى من سورة البلد: ﴿وَوَالِدٍ وَمَا وَلَدٌ﴾ [البلد:03]، وردت والد منكراً لغرض التعظيم، ويرى ابن عاشور أنه لا يحتمل غير ذلك في سياق القسم، فتعين بذلك أنه والد عظيم، والمقصود ههنا إبراهيم عليه السلام.

- وتنكير لفظ نفس، في قوله تعالى: ﴿وَنَفْسٍ وَمَا سَوَّاهَا﴾ [الشمس:07] تنكير يفيد التوعية، أي جنس النفس، فيعم كل نفس، دلت على ذلك القرينة المذكورة في قوله تعالى: ﴿عَلِمَتْ نَفْسٌ مَّا قَدَّمَتْ﴾ [الانفطار:05].

- وتنكير لفظة نارا، في قوله: ﴿فَأَنْذَرْتُكُمْ نَارًا تَلَظَّى﴾ [الليل:14] للدلالة على التهويل، أي تهويل أمرها لدى المتلقي.

- تنكير لفظة خُسْر، في سورة العصر: ﴿إِنَّ الْإِنْسَانَ لَفِي خُسْرٍ﴾ [العصر:02] يجوز أن يكون للتنويع، كما يجوز أن يكون للتعظيم والتعميم في مقام التهويل وفي سياق القسم. والمعنى أن الناس في خسران عظيم.

- كما أن تنكير لفظي جوع وخوف، من قوله تعالى: ﴿الَّذِي أَطْعَمَهُمْ مِنْ جُوعٍ وَآمَنَهُمْ مِنْ خَوْفٍ﴾ [قريش:04]، لإفادة النوعية، لا لغرض التعظيم والتهويل كما قد يتوهم، لأنه لم يحل بهم جوع ولا خوف من قبل.¹¹

4- الحذف وأبعاده الدلالية والتداولية:

لا شك أن للحذف أبعادا دلالية كثيرة أشار إليها ابن عاشور، وقد كثرت الإشارة إلى حذف المفعول به في المدونة المحددة من التفسير، لذلك سيكون اقتصارنا عليه في ما يلي:¹²

- حذف المفعول في قوله تعالى ﴿الَّذِي خَلَقَ فَسَوَّى﴾ [الأعلى:02]، ويمكن تقديره بلفظ عام، لأنه لم يدل عليه دليل، فيكون المعنى خلق كل مخلوق، كما يمكن تقديره بلفظ خاص، فيكون المقصود خلق الإنسان، وذلك لوجود دليل في مواضع أخرى- هو اقتران الخلق والتسوية في مثل قوله تعالى: ﴿فَإِذَا سَوَّيْتُهُ وَنَفَخْتُ فِيهِ مِنْ رُوحِي﴾ [الحجر:29]. كما حذف مفعول هدى لإفادة العموم، وهو عام مخصوص بما فيه من قابلية الهدى، فهو مخصوص بذوات الإدراك والإرادة.

- وفي سورة الليل حذف مفعول (يغشى)، لتنزيل الفعل منزلة اللازم لأن العبرة بغشاية كل من تغشاه ظلمته، وأسند التجلي للنهار مدحا له بالاستنارة التي يراها كل أحد. كما حذف مفعول (أعطى)؛ لأن فعل الإعطاء إذا أريد به إعطاء المال من دون عوض نزل منزلة اللازم لاشتتار استعماله في إعطاء المال، والمقصود إعطاء الزكاة. وحذف مفعول اتقى لأنه معلوم بالضرورة تقديره اتقى الله، كذلك حذف مفعول بخل، لأنه معلوم وأريد به البخل بالمال.

- وفي سورة العلق حذف متعلق (اقرأ) إما لأنه نزل منزلة اللازم، فيكون المقصود: أوجد القراءة، وإما لظهور المقروء من المقام، وتقديره: اقرأ ما سنلقيه إليك من القرآن، كما حذف مفعول الفعل خلق لتنزيل الفعل منزلة اللازم، أي الذي هو الخالق، أو أن يكون الحذف لغرض العموم؛ أي خلق كل المخلوقات، وقد خض الإنسان بالذكر؛ لأنه المطرد في مقام الاستدلال، وهو تعريض أيضا بتحقيق المشركين الذين ضلوا عن طريق التوحيد مع أن دليل الوجدانية قائم في أنفسهم.

وعليه فإن الحذف الموجود في الجمل السابقة أريد به مقاصد دلالية يتوصل إليها من خلال التركيب، وبقدرة تحليلية بارعة، فقد يحذف لإرادة العموم، وقد يحذف اختصارا، أو لدلالة السياق عليه، وغير ذلك، كما أن هذا الحذف لا يكون إلا وفق اعتبارات تداولية متعلقة بالمتكلم صاحب الخطاب، وما أراده من هذا الحذف، وبالمتلقي الذي يدرك سياق الكلام، وله معرفة سابقة بالمحذوف. وبالخطاب في حد ذاته اختصارا للكلام، أو لدلالة السياق.

5- التقديم وغرضه الدلالي التداولي:

- أكثر الإشارات التي بينها ابن عاشور في تفسيره لهذا الجزء، أن التقديم والتأخير غرضه العناية والاهتمام بالمقدم. وهذه أبرز الأمثلة على ذلك:
- التقديم في قوله تعالى: ﴿إِنَّ إِلَيْنَا إِيَابَهُمْ ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية: 25-26]، يرى أن تقديم الخبر على الاسم ههنا لغرض العناية والاهتمام، تحقيقا لهذا الرجوع لأنهم ينكرونه، وتنبيها على إمكانه بأن الرجوع إلى الذي أنشأهم أول مرة. وعليه يكون الخطاب موجها إلى متلق منكر قصد تنبيهه وإقامة الدليل عليه بأن الرجوع متحقق، ولا ريب. فالغرض الدلالي هو العناية والاهتمام بالمقدم والغرض التداولي هو تنبيهه وتأكيده للمنكر.
 - في قوله تعالى: ﴿يَوْمَئِذٍ يَتَذَكَّرُ الْإِنْسَانُ وَأَنَّى لَهُ الذِّكْرَى﴾ [الفجر: 23]: هنا تقديم يومئذ على العامل، وهو الفعل (يتذكر) لغرض الاهتمام، وفيه إطناب سيق للتشويق وحصول الإجمال مع التفصيل.
 - وفي آخر سورة البلد قدم متعلق لفظة مؤصدة (عليهم) لغرض الاهتمام أيضا بتعلق الغلق عليهم تعجيلا للترهيب...
 - وفي سورة الضحى قدمت المفاعيل (اليتيم، السائل، بنعمة ربك) على كل من (فلا تقهر، فلا تنهر، فحدث) على التوالي، لغرض الاهتمام أيضا؛ أي الاهتمام بالمفعول المقدم وجعله محور الكلام، وتسهيل الضوء عليه، ومعلوم أن هذا التقديم لا يكون إلا لغرض يقتضيه المقام.
 - في قوله تعالى من سورة الشرح: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ وَوَضَعْنَا عَنَّا وَزْرَكَ﴾ [الشرح: 01-02]. ﴿وَرَفَعْنَا لَكَ ذِكْرَكَ﴾ [الشرح: 04] تقديم للجار والمجرور (لك) هو سلوك لطريقة الإيهام للتشويق، فإنه لما ذكر فعل نشرح، علم السامع أن ثم مشروحا، فلما وقع الجار والمجرور لك، قوي الإيهام فزاد التشويق، لأن (لك) يفيد معنى شيء لأجلك، فلما جاء باللفظ صدرك، وذكرك تعين المشروح المترقب فتمكن من الذهن كمال تمكن.¹³
- فأنت ترى أن التقديم الموجود في الجمل يحمل أغراضا دلالية يريد بها المتكلم، وهذه المعاني تحيل إلى معان تداولية أيضا، لأن الكلام ذو مراتب بحسب حال السامعين، وبحسب المقام، فبذلك يؤدي الغرض التداولي منه، وهو ههنا يفيد تنبيه المتلقي أن المقدم هو محور العناية والاهتمام. أو يفيد التشويق والتوضيح بعد الإيهام، فيرفع عن ذهن السامع هذا الإيهام، فيتمكن المعنى في الذهن تمكنًا كاملا.
- 6- التوكيد (المؤكدات الاسمية والحرفية) وأبعاده الدلالية التداولية:
- في قوله تعالى: ﴿دَا دَا﴾ [الفجر: 21] يرى ابن عاشور أن الأول يجوز أن يكون منصوبا على أنه مفعول مطلق مؤكد لفعله، ويرى أنه جيء بالتأكيده ههنا؛ لأنها الآية الأولى التي يذكر فيها دَا الجبال فكان الأمر

خارقا للعادة، لذلك استلزم المقام وقوعه على وجه الحقيقة دون مجاز أو مبالغة، فأكد مرتين، وكذا الثانية منصوبة على التوكيد اللفظي لدكا الأولى، لزيادة تحقيق إرادة ذلك الحقيقي. لأن ذلك الأرض العظيمة أمر كعجيب فاقضى المقام إثباته زيادة تحقيق لمعناه الحقيقي. أما في قوله تعالى: ﴿صَفَا صَفَا﴾ [الفجر: 22] فليست من باب التوكيد كما قد يتوهم، لأن صفا الثانية من باب التكرير المراد به التصنيف والترتيب لا التوكيد لصفا الأولى، لذلك ليست صفا الثانية تقريراً لما سبق، ولكنه تكرير المعنى؛ لأن المعنى الثاني ليس نفسه الأول.

- ويرى ابن عاشور أن حرف السين في قوله تعالى ﴿سَنُقَرِّبُكَ فَلَا تَنْسَى﴾ [الأعلى: 06] علامة استقبال، وهي تفيد تأكيد حصول الفعل أيضاً خاصة إذا اقترنت بفعل حاصل في وقت التكلم، فيقتضي أنه يستمر ويتجدد، وذلك تأكيد لحصوله.
- وفي قوله تعالى: ﴿إِنَّ هَذَا لَفِي الصُّحُفِ الْأُولَى﴾ [الأعلى: 18] حرفا اللام وإن يفيدان التوكيد، وقد أكد بهما الكلام، لأنه موجه للمتكلمين. ففي ذلك مراعاة للسياق، وحال السامعين، دفعا لإنكارهم وإزالته.
- في قوله تعالى ﴿فَذَكَرْنَا إِيَّاكَ أَنْتَ مَذْكُورٌ﴾ [الغاشية: 21]، الحرف إن، ههنا أفاد التعليل، قد قام مقام فاء السببية، لأنها إذا وردت بعد جملة إنشائية أفادت هذا المعنى، والمعنى هو تعليل للأمر بدوام التذكير مع عدم إصغائهم. وههنا أسلوب قصر أيضاً، أي، وهو قصر إضافي أفاد أن الكلام موجه للرسول صلى الله عليه وسلم معناه أنت مذكر لست وكلا عليهما، فلا تتخرج من عدم استجابتهم.¹⁴
- قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يَرْضَى﴾ [الليل: 21] يرى أن اللام لام الابتداء لتأكيد الخبر، وسوف لتحقيق الوعد في المستقبل. وقد أفادت سوف أيضاً في قوله تعالى: ﴿وَلَسَوْفَ يُعْطِيكَ رَبُّكَ﴾ [الضحى: 05] الاستقبال وفائدته أن هذا العطاء الموعود به مستمر لا ينقطع، والتأكيد يأن، في قوله تعالى: ﴿إِنَّهَا عَلَيْهِمْ مُّوَصَّاةٌ﴾ [الهمزة: 08]، للتحويل، أي تهويل الوعيد بما لا يترك احتمالاً للمجاز، ولا المبالغة، وأن الأمر حاصل على وجه الحقيقة.

وعليه فالغرض من التوكيد واضح، إذ لا يؤكد الكلام إلا لأغراض ومواقف تستدعي ذلك، منها إنكار المتلقي، أو إزالة الشك من ذهنه، وتأكيد حصول الفعل، أو تهويل لأمر ما من باب الحقيقة لا المجاز، وغير ذلك، مما يستدعيه السياق والموقف الكلامي، وما يراعي به حال السامع ومدى تقبله للخبر، تحقيقاً للمقصد والفائدة.

7- وظائف الأدوات ومعانيها الدلالية التداولية:

سنحاول أن نقف على بعض الأبواب والمسائل فقط، واختارنا نماذج من حروف الجر، والعطف، وأساليب الاستفهام، والتوكيد، والنفي، لكثرتها في المدونة.

أ- حروف الجر ودلالاتها التركيبية:

- حرف من في قوله تعالى ﴿لَا يُسْمِنُ وَلَا يُغْنِي مِنْ جُوعٍ﴾ [الغاشية:07] يفيد معنى البدلية، أي لا يغني غناء بدلا عن الجوع، وهو يفيد الابتداء أيضا: أي ليس لهم طعام إلا ما يخرج من الضريع.
- ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبِلِ كَيْفَ خُلِقَتْ﴾ [الغاشية:17] ذكر أن التعدية النظر بحرف الجر (إلى) تنبئها على إمعان النظر، ليشعر الناظر مما في المنظور من الدقائق، فقوهم نظر إلى كذا، أشد في توجيه النظر من نظر كذا، لما في إلى من معنى الانتهاء، حتى كأن النظر انتهى إلى المجرور انتهاء تمكن واستقرار.
- في مطلع سورة الفجر والشمس والليل والتين، حرف الواو حرف جر يفيد القسم، ودلالة القسم هنا تعريض بتحقيق المقسم عليه بالنسبة للمكرين، وتطويل القسم لغرض التشويق، والأمر نفسه في مطلع سورة الشمس والليل والتين...
- ﴿يَقُولُ يَا لَيْتَنِي قَدَّمْتُ لِحَيَاتِي﴾ [الفجر:24] اللام تحمل معنى التوقيت؛ أي قدّمت عند أزمان حياتي، فيكون المراد الحياة الأولى التي قبل الموت، ويحتمل أن تكون لام العلة، فيكون المعنى قدّمت الأعمال الصالحة لأجل أن أحي في هذه الدار. وحرف النداء للتنبيه اهتماما بهذا التمني.
- في قوله تعالى من سورة الضحى: ﴿خَيْرٌ لَكَ مِنَ الْأُولَى﴾ [الضحى:04] اللام للاختصاص؛ أي خير مختص بك، وهو شامل لكل ما هو متعلق بنفس النبي صلى الله عليه وسلم في ذاته، ودينه، وفي أمته. واللام في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نَشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:01] لام التعليل، أي لأجلك، والمعنى أن ذلك تكريما للنبي صلى الله عليه وسلم أن جعل ذلك لأجله.
- في سورة التين يقول تعالى: ﴿فِي أَحْسَنِ تَقْوِيمٍ﴾ [التين:04] في هنا أفادت الظرفية المجازية المستعارة لمعنى التمكن والملك، فهي مستعملة بمعنى باء الملازمة، أو لام الملك، وقد عدل عن أحد الحرفين الحقيقيين إلى حرف الظرفية لإفادة قوة الملازمة أو قوة الملك مع الإيجاز..
- وفي قوله تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْتَيْنِ﴾ [التين:07] الباء في كلمة بالدين، تفيد السببية والمعنى: فمن يكذبك بعد هذا بسبب ما جئت به من الدين فالله هو يحكم فيه.
- في سورة العلق يقول تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ﴾ [العلق:01]: الباء لها ثلاثة معاني:¹⁵
- الأول أن تكون للاستعانة وههنا يكون الجار والمجرور متعلق بمحذوف تقديره ابتدئ، كما يجوز أن يكون متعلق بإقرأ الثانية. ومعنى الاستعانة أن تذكر اسم الله عند هذه القراءة. والثاني أن تكون للمصاحبة: فيكون المعنى اقرأ ما سيوحى إليك مصاحبا لقراءتك اسم ربك، والمصاحبة مصاحبة الفهم والملاحظة للجلاله، فيكون هذا المعنى إثباتا لوحداية الله بالألوهية، وإبطالا للنداء باسم الأصنام. وعلى المعنى الثالث أن تكون بمعنى على. فيصير المعنى: اقرأ على اسم ربك أي على إذنه.

ب- حروف العطف :

__ الفاء في قوله تعالى: ﴿فَذَكَّرْ إِنَّ نَعْتَ الذِّكْرَى﴾ [الأعلى:09] للتفريع؛ بمعنى تفريع النتائج عن المقدمات، وكثير ما ترد هذه الفاء التفريعية، وأشار إليها ابن عاشور في مواضع كثيرة. وفي قوله تعالى ﴿ثُمَّ لَا يَمُوتُ فِيهَا﴾ [الأعلى:13]: ثم للتراخي الترتبي تدل على أن معطوفها متراخي الترتب في الغرض المسوق له الكلام، وهو شدة العذاب، وتعقيب الكلام بقوله ولا يحي، احتراز لدفع توهم أن يراد بنفي الموت عنهم أنهم استراحوا من العذاب.

__ في قوله تعالى في سورة الأعلى بل الأعلى ﴿بَلْ تُؤْثِرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا﴾ [الأعلى:16]: ذكر لها عدة معاني في هذا الموضع يفيدها الإضراب الذي تعنيه:¹⁶

فيرى أنها حرف يفيد الإضراب؛ أي انصراف في القول أو الحكم إلى ما يأتي بعد بل، وهي ههنا عاطفة جملة عطفاً سورياً، فيجوز أن تكون لمجرد الانتقال من ذكر المنتفين بالذكرى، والمتجنبين لها، إلى سبب إعراضهم عن ذلك، بأن السبب إثارهم الحياة الدنيا. وقد تكون إضراباً عن حكاية أحوال الفريقين بالانتقال إلى التوبيخ، توبيخ أحد الفريقين وهو الفريق الأشقي، فالخطاب موجه إليهم على طريقة الالتفات، لتجديد نشاط السامع لكي لا تنقضي السورة كلها في الإخبار عنهم بطريقة الغيبة، ويجوز أن يكون الإضراب إبطالاً لما تضمنه قوله تعالى: ﴿قَدْ أَفْلَحَ مَنْ تَزَكَّى﴾ [الأعلى:14]، من التعريض للذين شقوا، بتعريضهم على طلب الفلاح لأنفسهم.

__ ﴿ثُمَّ إِنَّ عَلَيْنَا حِسَابَهُمْ﴾ [الغاشية:26] ثم لإفادة التراخي الترتبي، أي التراخي مع الترتيب لأن حسابهم هو الغرض من إياهم، وهو الأوقع في تهديدهم على التوالي.

__ وقوله ﴿فَعَقَرُوهَا﴾ الفاء الأولى تفيد الترتيب والتعقيب فيكون المعنى: كذبوا رسول الله فتحدهم بآية الناقة وحذرهم من التعرض لها، كما يجوز أن تكون للترتيب الذكري المجرى المقصود به عطف المجل على الفصل. أما الفاء الثانية، فهي للسببية؛ أي كانت طغواها سبب تكذيبهم رسول الله.

ج- الاستفهام والنفي، أدواتها، ودلالاتها:

قد يخرج الاستفهام والنفي عن دلالتها الأصلية إلى معان أخرى تفهم من السياق، وذلك بحسب المقاصد، وفيما يلي بعض هذه الدلالات كما أوردها ابن عاشور.

__ في قوله تعالى: ﴿أَلَمْ نُشْرَحْ لَكَ صَدْرَكَ﴾ [الشرح:01]: الألف للاستفهام التقريري، دل على إثبات المنفي، وهذا التقرير المقصود به التذكير من أجل مراعاة هذه المنة عندما يخالجه ضيق الصدر مما يلقاه من الأذى.

__ وقوله تعالى ﴿هَلْ أَتَاكَ حَدِيثُ الْغَاشِيَةِ﴾ [الغاشية:01] حرف الاستفهام هل يفيد معنى قد، واستعمل الاستفهام ههنا في مطلع السورة لغرض التشويق إلى معرفة الخبر لما يترتب عنه من موعظة، وهو استفهام صوري يؤقن به لبيان أهمية الخبر، بأن يكون بلغ السامع. وفي قوله تعالى من السورة

نفسها: ﴿أَفَلَا يَنْظُرُونَ إِلَى الْإِبْلِ﴾ [الغاشية:17]، أشار ابن عاشور إلى معنى الألف، وبين أنها للاستفهام الإنكاري، لأن فطاعة ذلك الوعيد تجعل المقام مقام استدلال على أنهم محققون بوجود النظر في دلائل الوحداية التي هي أصل الاهتداء، والاستفهام قُصد به الإنكار عليهم إهمال النظر في الحال إلى دقائق صنع الله في بعض مخلوقاته¹⁷، وذكر ابن عاشور أن في سورة الليل قال تعالى: ﴿وَمَا يُغْنِي عَنْهُ مَالُهُ إِذَا تَرَدَّى﴾ [الليل:11] يجوز في (ما) أمران: أن تكون نافية، أو استفهامية. فعلى النفي يكون التقدير: ...لا يغني عنه ماله إذا سقط في جهنم، وعلى الاستفهام وهو استفهام إنكار وتوبيخ، والمعنى: وما يغني عنه ماله الذي بخل به؟

- وفي سورة التين قال تعالى: ﴿فَمَا يَكْذِبُكَ بَعْدَ الْبَلِّينِ﴾ [التين:07]، فيرى أن (ما) هنا تحتل معنيان: الأول أن تكون استفهامية، ويكون الاستفهام هنا لإفادة التوبيخ، وتحتل أن تكون موصولة بمعنى من، وهي في محل مبتدأ، والخطاب للنبي صلى الله عليه وسلم.¹⁸
- بناء عليه فإن الاستفهام والنفي يحملان معان كثيرة تخرج بهما عن معناهما الأصل الذي وضعاه، وكل ذلك إنما يكون لأغراض كثيرة يريد بها المتكلم، ويقتضيها المقام، فقد يدل الاستفهام على التقرير والإثبات، وقد يدل على التشويق، وقد يدل على الإنكار والتوبيخ. وهذه الأغراض إنما توجه لمخاطب معين في وضعية معينة لتنبهه، أو تخطئته ولومه، وهي أفعال كلامية ذات قوة إنجازية بالمفهوم الحديث في الدرس التداولي.

خاتمة:

- كشفت هذه الدراسة عن مختلف الأبعاد الدلالات والتداولية للوظائف التحوية في تفسير حزب الأعلى من التحرير والتنوير لابن عاشور، وقد توصلنا في ختام هذا العمل إلى نتائج أبرزها:
- غاية علم النحو تتجاوز مسألة صون اللسان عن الخطأ، إلى فهم دلالات التراكيب عامة، والتراكيب القراءانية خاصة، ودليل ذلك كثرة مصنفاته، ومباحثه، وامتزاجه بعلوم لغوية وشرعية، وتجاوزه في كثير من الأحيان حدود ما يجوز وما لا يجوز من اللغة.
- يمثل المعنى النحوي الوظائف التي تشغلها الكلمات في الجمل والتراكيب، وفق ترتيب واختيار من طرف المتكلم، يستند فيها إلى معايير نفسية ومقصدية مقامية.
- المعنى التحوي مفتاح علم المعاني وجوهره، فإذا كان موضوع علم المعاني دراسة ما تحمله التراكيب من دلالات ومقاصد تبليغية، فإن الوظائف أو المعاني التحوية تبين هيئة التراكيب، وما يطرأ عليها من تغيير لمواقع الألفاظ داخلها.

- للمعاني التحوية أبعاد دلالية تمثل الغرض من التركيب الكلامي، وهو الفائدة، وأصل المعنى، يتحقق بتوخي معاني النحو، وحسن الاختيار، والترتيب، والضم، ويصطلح عليه أيضا بالمعنى التركيبي. ولا يتوصل إليه إلا بفهم عميق للقواعد التحوية، وقدرة تحليلية واسعة.
- عتزل الأبعاد التداولية جزءا مهما في فهم حيثيات الخطابات والتصوص، من جانب المتكلم، والمتلقي، فلا يمكن تبليغ المقصد من طرف المتكلم، ما لم يكن له معرفة بالقواعد التي تعينه على انتقاء العبارات ما يناسب المقام، وحال السامع، ولا يمكن للمتلقي فهم هذا الخطاب ما لم يمثل هذه القواعد التحوية تمثلا جيدا.
- يعد تفسير التحرير والتنوير للطاهر بن عاشور من أعمق التفسيرات وأكثرها فائدة، لما تضمنه من درر نحوية وبلاغية نفيسة، وتحليلات لغوية قوية، تدل على عمق في الفهم، وقوة إدراك صاحبه، وتبحره في شتى أصناف العلوم اللغوية، وقد ضمّ التفسير كثيرا من اللطائف الدلالية والتداولية التي أفصحت عنها المعاني التحوية.
- من أغراض التعريف والتنكير التي أشار إليها ابن عاشور، أن دلالة الألف واللام قد تكون للجنس الذي يراد به العموم، أو للعهد ويراد به التعيين أو الخصوص، وأشار إلى وجود عموم عرفي، وهو ما يكون شائعا في عرف الناس آنذاك، ويشمل فئة معينة فقط. أي زمن تلقي الخطاب. ومثاله تعريف لفظ الإنسان من قوله تعالى ﴿فَأَمَّا الْإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلَاهُ رَبُّهُ﴾ [الفجر:15]، التي من معانيها الاستغراق العرفي، أي المشركون لأنهم الغالب على الناس المتحدث عنهم آنذاك، ومن أغراض التنكير التي أشار إليها في تفسيره، دلالاته على التعظيم، أو التعيين، أو التنويع، أو التهويل... ومن دلالات التقديم العناية والاهتمام بالمتقدم، والتنبيه عليه، وجعله محور الكلام، أو قد يراد به التشويق والتوضيح بعد الإبهام والغموض، وكل ذلك بحسب غرض المتكلم، وما يقتضيه المقام.
- يؤدي حذف المفعول به، مقاصد دلالية تداولية تفهم من التركيب والمقام، ويتم التوصل إلى هذا المحذوف وفقا للمقام وظروفه، ومعرفة السامع، فقد يحذف لإرادة العموم، أو يحذف اختصارا، أو لوجود ما يدل عليه.
- أورد ابن عاشور كثيرا من المعاني المباشرة وغير المباشرة للأساليب اللغوية مثل: الاستفهام، والنفي، والتوكيد وغيرهم، وبين أن كثيرا من هذه الأساليب تأتي لغرض التقرير، وإزالة الشك، وهي أفعال كلامية بالمفهوم الحديث ذات قوة إنجازية تنبني على أغراض المتكلم ومقاصده.

هوامش:

- ¹ أبو يعقوب السكاكي: مفتاح العلوم، دار الكتب العلمية، بيروت، 1983، ص 75
- ² عبد القاهر الجرجاني: دلائل الإعجاز، مكتبة الغانجي، مصر 2000، ص 25
- ³ المصدر نفسه، ص 300
- ⁴ المصدر نفسه، ص 347
- ⁵ المرجع نفسه، ص 59
- ⁶ ينظر: خليفة بوجادي، في اللسانيات التداولية، بيت الحكمة، العلمة، الجزائر، 2009، ص 119
- ⁷ محمد الطاهر بن عاشور، تفسير التحرير والتنوير، دار سحنون، تونس، 1984، ج 1، ص 08
- ⁸ المصدر نفسه، ج 12، ص 315-312
- ⁹ ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 350
- ¹⁰ المصدر نفسه، ج 12، ص 397
- ¹¹ ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 361
- ¹² ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 436-377-274
- ¹³ ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 410-367
- ¹⁴ المصدر نفسه، ج 12، ص 306
- ¹⁵ المصدر نفسه، ج 12، ص 437-436
- ¹⁶ المصدر نفسه، ج 12، ص 289
- ¹⁷ ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 304-294
- ¹⁸ ينظر: المصدر نفسه، ج 12، ص 430

. قائمة المراجع:

- القرآن الكريم برواية حفص عن عاصم.
- بدر الدين بن مالك المشهور بابن الناطم (1989)، المصباح في المعاني والبدع والبيان، الجواميز، مكتبة الآداب.
- حسن طبل، (1998) المعنى في البلاغة العربية، القاهرة، دار الفكر العربي.
- محمد الطاهر بن عاشور، (1984) تفسير التحرير والتنوير، تونس، دار سحنون.
- عبد القاهر الجرجاني: (2000) دلائل الإعجاز، مصر، مكتبة الغانجي.
- خليفة بوجادي، (2009) في اللسانيات التداولية، العلمة، الجزائر، بيت الحكمة.
- أبو يعقوب السكاكي (1983) مفتاح العلوم، بيروت، دار الكتب العلمية.